



اللغة الاغترابية وتمظهراتها في أعمال إبراهيم الكوني الروائية

فوزي أبوبكر العيان*

الملخص:

إن سمت الرواية لدى إبراهيم الكوني، هو معمار لغوي، يجمع بين كم وافر من العلاقات بين ألفاظه، لتعكس جوانب قصد إليها الكاتب، وأخرى ضمنية، تبقى في زوايا العمل الأدبي، يصل إليها من قصدها وثابر في البحث عنها.

ولعل من هذه الجوانب، ما عرف باللغة الاغترابية، التي تعبر عن تجربة الكوني مع الاغتراب، وهي أصل من إنتاج الواقع عموماً والواقع الاغترابي، على وجه الخصوص، فاللغة عنده تحمل بعدها الواقعي والاجتماعي في داخلها، وهي وسيلة تواصل مقدسة وجليلة، لأن غاية التعبير بها ليست ترفاً، كما يرى البعض في غاية الفن عموماً، بقدر ما هو سعي محموم لاستعادة الوجود الانساني الضائع، فاللغة عنده هي إيماءات دلالية، وعالم مليء بالاستعارات، والاشارات والرموز، التي ساهمت في تبديل صورة العالم إلى رمز وبدأت تبرز صورة الأشياء الظاهرية، في عملية الإخفاء النبيل لتحويل الوجود الإنساني إلى مادة مجازية منفية عن وطنها المرئي.

من هنا نجد أن روايات إبراهيم الكوني تعد نموذجاً للتعدد اللغوي، الذي يجسد اللغة الاغترابية من خلال تنوع الشخصيات، وتباين أهدافها.

* قسم اللغة العربية، كلية التربية الجامعة الأسمرية الإسلامية.

المقدمة:

الرواية معمار لغوي يبدعه مخيال الروائي في إطار سردي يجمع بين الحدث والشخصية والعلاقات الاجتماعية، فهي تتخذ " لنفسها ألف وجه، وترتدي في هيئتها ألف رداء، وتتشكل أمام القارئ في ألف شكل" ¹، وهي تقدم إلينا على لسان الراوي، لأن نقل الوقائع وتقديمها في قالب لغوي يستوجب حضور هيئة تلفظية لدى الكاتب الذي يقوم بالتعبير عن هذه الأفعال والأحداث التي تعجز عن التعبير عن نفسها بنفسها. ومن ثم يختلف السارد عن الكاتب إذ "هناك مسافة تفصل بين الروائي والراوي، فهذا لا يساوي ذلك، إذ أن الراوي قناع من الأقنعة العديدة التي يتستر وراءها الروائي لتقدم عمله" ² مما يؤكد أن عالم السرد يشكل نسقاً خاصاً منفصلاً عن عالم التجربة الحية، ف"الكاتب المبدع يعيش حالة خاصة بلا ريب وهو نفسه لحظة الكتابة، فأما خارج الكتابة فهو إنسان آخر" ³.

فالكاتب المبدع يشتغل على حقل اللغة، ليمارس بذلك نوعاً من الاختراق والتخريب، ذلك أن اللغة حتى من حيث هي نظام، معرضة كي تعيش بفعل الاختراق والتخريب الدائمين، ولكن في حدود ما يسمح لها بأن تبقى أرضاً للتفاهم، فالتخريب لا يلغي مساحة الاصطلاح، ولا يلغي حركة الانتظام في تبدلها، بل هو حياة اللغة وتطورها ⁴، ومن ثم لم يعد اختراق اللغة يمارس لذاته فحسب، إذ تمكنت الرواية من تخطي حبسة التقليد التي لازمت طفولتها وتجاوزت ذلك إلى نوع لا يطرح نفسه كجملة من النصوص الشفافة التي تعرض لمجموعة من الأحداث التي تشكل الحكاية إنما شغلت بذاتها والعالم الذي تقوم بتمثيله.

ولعلنا نجد أن اللغة تستمد وجودها في الإطارين الإبداعي والنقدي من كونها المادة الخام، التي يتشكل منها العمل الإبداعي أو النقدي، واللغة - في ذلك السياق - هي التي تشكل من خلال تراصفها الخاص النصوص الإبداعية النثرية، وهي التي تؤسس للنصوص الأدبية جمالياتها.

والحديث عن لغة الرواية عموماً ولغة الاغتراب على وجه الخصوص له مبرراته العلمية والنقدية، وبخاصة بعد أن تغير الإبداع الروائي بالتدرج، ولم يعد ككتاب الرواية يهتمون اهتماماً خاصاً بعناصر الرواية الأخرى، فلم يعد للشخصية كما يقول - عبد الملك مرتاض - تلك الامتيازات الفنية، التي كانت تتمتع بها طوال القرن التاسع

1 - مرتاض - عبد الملك، في نظرية الرواية، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1998، د ط ص 11.

2 - قاسم - سيزا، بناء الرواية، دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، 1985، د ط، ص 131.

3 - منور - أحمد، فن الكتابة ووظيفة الناص، مطابع الملتقى المغربي، الدار البيضاء المغرب، 2001، د ط، ص 123

4 - ينظر، نفسه، 124

عشر، وطوال النصف الأول من القرن العشرين " إنه لم يبق للرواية شئ غير جمال لغتها وأناقة نسجها "5، ففي كثير من الأحيان قد تكون البنية اللغوية هي أفضل ما في الرواية ، وأقدر عناصرها على الإدهاش والإثارة، وهي - في الوقت ذاته - أقدر هذه العناصر على تجسيد البنية الدلالية ، بالإضافة إلى أن العناصر الأخرى المكونة للعمل الروائي لا يمكن أن يكون لها وجود فعال إلا من خلال اللغة" فباللغة تنطق الشخصيات وتكشف الأحداث وتوضح البيئة، ويتعرف القارئ على طبيعة التجربة التي يعبر عنها الكاتب"6.

والتحدي الذي كان يواجهه الكوفي في صياغة رواياته، هو إدراكه للدور الفاعل الذي تؤديه البنية اللغوية في العمل الروائي، من خلال تشكيل مكوناتها الأخرى، فمن خلال اللغة التي تمس كل العناصر المكونة للعمل الأدبي، تصبح الرواية جنساً أدبياً قائماً على التثقيف اللغوي الذي يحمل اللغة بدلالات إضافية فوق دلالاتها الأصلية، ومن ثم وقع اختيارنا لهذا الجانب لدراسة روايات الكوفي، واختيار هذا الجانب المهم - من وجهة نظرنا - هو متمم لمداخل أخرى ذات أهمية في اكتشاف روايات الكوفي، ولكن تلك الجوانب الأخرى لا يمكن التعرف عليها إلا من خلال البنية اللغوية، التي هي سلسلة من الملفوظات المترابطة، التي ينتجها طرف متكلم بقصد التأثير على طرف مخاطب، وإنجاز عملية التواصل المطلوبة .

لذا فإن كل خطاب يحمل رسالة يتوخى إبلاغها بواسطة اللغة التي هي الأداة الأساسية والفاعلة لكننا حينما نتحدث عن الخطاب الأدبي ومنه الخطاب الروائي، نجد أنفسنا أمام مشكلة تكمن في حقيقة الوظيفة التي عليه أن يؤديها فعلاً ، وهل هي تسخير اللغة من أجل الإبلاغ فقط، كما تفعل سائر الخطابات التي تستهلك وتغني بمجرد تأدية تلك الوظيفة، أم هي تسخير اللغة من أجل تكوين بنية متميزة قد تصبح مقصودة لذاتها وبذاتها؟ ومن ثم فهو أبداً أمام معادلة صعبة من أجل تحقيق التوازن بين الاحتفاظ أو الاكتفاء بمميزاته النوعية التي هي منبع ثر للإشباع الفني، وبين عدم التنازل عن دوره في الإبلاغ باعتباره أيضاً مساهمة فكرية وإنسانية وحضارية.

وإذا كانت بنيته المتميزة هذه تتحقق أساساً بتوظيف اللغة فيه توظيفات خاصة، فإن اللغة أصلاً تمثل إشكالية كبرى، من حيث مفهوماً ونظامها وعلاقتها بالفكر وبالواقع، وما إلى ذلك، ومعنى هذا أن الأدب ومنه الرواية يستثمر اللغة بكل أبعادها ومعطياتها. ولما كان الخطاب الروائي هو حصيلة البنية السردية والتحويلات اللغوية التي تؤسس عالماً تخيلياً هو عالم الرواية، أو بناؤها اللفظي، فإنه من المجدي بحث العلاقة بين

5 - مرتاض - عبد الملك، في نظرية الرواية، ص116

6 - عبد الرحيم - حمدان: اللغة في رواية تجليات الروح، مجلة الجامعة الإسلامية، مجلد 16، عدد 2، يونيو 2008، ص104

مفهوم اللغة ومفهوم الواقع الاغترابي، وكيف تتصافر وقائع اللغة ولغة الوقائع من أجل تحقيق بنيته المتشابكة في اظهار الاغتراب وألوانه؟.

واللغة ليست أداة للتوصيل وحده، لكنها الوعاء الحامل لفكر الانسان وثقافته ورؤيته، ولذلك تتحدد اللغة بطبيعة الموضوع الذي توظف فيه، إذ تنفر اللغة الأدبية من أساليب التقرير والمباشرة والتعميم، وتتحدد بالتالي جمالية اللغة ونجاحها في نقل جزئيات الصورة التي يراد لها أن تنقلها ⁷.

ولعلنا نجد أن اللغة ليست على درجة واحدة من حيث المستوى والوظيفة، كما سنعرف لاحقاً، ولا من حيث الأصل والمنبع والقوة، ومن السداجة القول بأن استعمال اللغة شيء طبيعي ومنتظم كالمشي أو التنفس وإنما هي على درجة كبيرة من الاختلاف والتعقيد، فلكل مجال لغته، ولكل قوم لغتهم، ولكل مقام مقال كما يقال، بيد أن من طرائف مفارقات الأدب بعامة، وجنس الرواية بخاصة، هو قدرتها الخاصة والضرورية على امتصاص كل هذه اللغات، أو هذه المستويات المتعددة واستعمالها كمواد بانية لعلمها الذي تريده، مثل الواقع الحي عاجاً بتلك الأصوات والخطابات، ومن ثم فلغتها أو اللغة فيها ليست بنية تركيبية فقط، وإنما هي بنية وظيفية ومنفتحة على مرجعيات خارج نصية، أو قبل نصية كثيرة ومتعددة لذا فإن الأديب لا يعرف لغة واحدة ووحيدة - كما يقول ميخائيل باختين - فالأمر لا يتعلق في الرواية بلغة وإنما بحوار لغات ⁸.

واللغة المتداولة المتجددة تشتغل وفق إجراءات معقدة، للغة المحملة بالمعارف والخيال والانفعالات، ولا تنشأ اللغة من عدم أو تدور في فراغ، ومن ثم فالحديث عن لغة الاغتراب وكيونيتها، وعن مفهومها يقتضي الحديث عن العناصر المتماسكة معها، مثل علاقتها بالفكر الذي هي صورته المجسدة، وهو حقيقتها الكامنة ومثل علاقتها بالواقع أو العالم المتصور، الذي يساعد على خلقها، وتعمل على تمثيله أو إعادة إنتاجه فلا يتيسر الوصول إلى فهم تقريبي لعملية التعبير، وعملية إنتاج الخطاب، والخطاب الأدبي أو الروائي إلا من خلال اعتبار تقديري لهذه العناصر المشاركة والمشاركة التي هي اللغة والفكر والواقع ثم الرواية.

وتعرف اللغة بأنها "طريقة إنسانية خالصة وغير غريزية لتوصيل الأفكار والانفعالات والرغبات بواسطة نسق من الرموز المولدة توليدا إراديا" ⁹، وإذا كان القصد الواضح من هذا التعريف هو نفي الفطرية والغريزية، عن هذه الظاهرة الإنسانية الخاصة والعجيبة، وإثبات اصطلاحيتها وتداولها؛ فإنه يستدعي وضع أسئلة مترتبة عنه، مثل معرفة حقيقة عملية التوصيل، وحقيقة الانفعالات والرغبات، ومستوياتها ومنشأ الأفكار، ودلالاتها، وكيف

7 - بدر- عبد المحسن طه، نجيب محفوظ، الرؤية والأداة، دائرة الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة مصر 1987م د.ط. ص 116

8 - باختين - ميخائيل، الخطاب الروائي، ترجمة محمد برادة، دار الفكر للدراسات والنشر، القاهرة، 1987، ط1، ص. 56

9 - سايبير- ادوارد، مدخل للتعريف باللغة، ترجمة سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1993، دط.ص. 12

يستطيع هذا النسق من الرموز المولدة أن يتمثل الأشياء ويمثلها، ومن ذلك الاغتراب ومظاهره، وهذا يعني أن مفهوم اللغة عموماً، ولغة الاغتراب على وجه الخصوص لا يقوم بذاته، ولذاته فقط، وإنما هو مرتبط ارتباطاً تكوينياً بالإنسان من حيث هو الفاعل الكلامي، وصانع الرموز ومن حيث هو المفكر المستوعب والمنفعل أو الراغب، أي مرتبط بوجوده وبقدراته الذهنية وأنشطته النفسية، ولذلك ينبغي بحث نظرية اللغة ضمن خصوصيات الإنسان، وضمن تفاعلاته مع الواقع والطبيعة التي يعيش فيها .

والمشتغلون في حقل الرواية، يستثمرون وقائع اللغة في صناعة الأحداث واختلاق العوالم، التي تعج بالأصوات والمواقف والشخصيات التي تكون مجتمعاً قائماً بذاته، ومن ثم فهو مطالب بالتمكن من اللغة أولاً وبتطويعها للإبداع في نطاق السلطة التي تملكها وضمن الخصائص التي تميزها، كما أن على المتلقي ألا يتعامل مع خطابه بنفس القدر من المسؤولية اللغوية التي يبني بها فحسب، وإنما بحدود علمية ومنهجية ترتكن إلى نظريات مدعمة تعالج مختلف الجوانب البنيوية، مثل دور اللغة في التشخيص وفي بناء المرجعيات المحيطة¹⁰.

فالروائي لا يتمثل الواقع إلا بواسطة اللغة ما دام أحد لا يستطيع أن يفكر أو يقيم تصوراً ذهنياً إلا داخل لغة معينة، وهذه اللغة هي أصلاً من إنتاج الواقع عموماً، والواقع الاغترابي الاجتماعي على وجه الخصوص، فهي تحمل بعدها الواقعي والاجتماعي في أحشائها، وحينما تستعمل لنقل الواقع أو لإعادة إنتاجه في الرواية تكون جبلى بكل تلك الأجنة التي تزرع في النص الروائي فتجعله من نسل الواقع أو تجعله استنساخاً له على الطريقة الحديثة، ما دام يحتوي بعض أو أهم جيناته.

ولربط داخل النص أو واقعه اللغوي، بخارج النص أو واقعه المرجعي، لا بد من المرور عبر مستوياته اللغوية، ومعرفة مدى إسهاماتها في تكوينه، وبذلك سنفهم كيفية تضافر واقع اللغة ولغة الواقع في نسج ذلك الخطاب، وإقامة صرحه، ونفهم كيف يمكن أن يأخذ بيد القارئ، أو بمجامع عقله ليدله على مشارب حقيقته أو حقائقه الجمالية والمرجعية.

ولعل تأسيس علم اجتماع لغوي، يجمع بين فلسفة اللغة وفلسفة البنى الاجتماعية، قد نظر له باحتين وانتقل من مفهوم الدليل - الكلمة - إلى مفهوم الخطاب، كما طرح مفهوم الحوار أو التفاعل اللفظي كمفهوم مركزي يحدد الخلفية الاجتماعية لكل خطاب، واعتبر أن فهم الواقع المتضمن في الرواية يتوقف حتماً على فهم لغاتها المتحاورة؛ لأن الحوارية خاصة تناصية تكوينية، لم يسلم منها إلا كلام آدم الذي كان يقارب علماً بكرة

10 - ينظر، الخطيب - محمد كامل، تكوين الرواية العربية - اللغة ورؤية العالم -، منشورات وزارة الثقافة، دمشق سوريا، 1990 م ط1، ص68

خالياً من كلام الآخرين¹¹؛ وذلك يعني أن لغة الرواية، أو لغاتها، مشروطة أصلاً بالواقع التاريخي للشرائح الاجتماعية التي تتكلمها، والرواية هي مجموعة من البنيات التركيبية والسردية التي تتفاعل مع القضايا الاجتماعية والاقتصادية على مستوى اللغة، لأن العلاقة الجدلية بين اللغة والواقع هي المبدأ المنظم لسوسيوولوجيا النص الأدبي، على اعتبار أن المصالح الاجتماعية تتمظهر في اللغة، ومن ثم ينبغي تقديم النص الأدبي في الإطار التاريخي للوضعية السوسيولسانية، كما ينبغي ربط الرواية بالمرحلة التاريخية التي ظهرت فيها وببلاغة المجموعة الاجتماعية، التي تحاول تجسيد مصالحها ضمن اللغة.

ولأننا بصدد التأصيل للغة الاغترابية نقول بأن اللغة ليست مجرد شكل تعبيرى ثابت ومحدود، يصف الحقيقة فقط، بل تتعدى ذلك إلى الانسلاخ عن نفسها، ذلك لأن العقل يعمل من خلال اللغة، فيفرض فئات وأشكالا منطقية على أشياء قد لا تكون متأصلة فيها، لأنها - كما هو معلوم - لا تطابق العلامة الخارجية دائماً، وهذا ما مكنها من الاستحواذ على بعض الجوانب اللصيقة بالبعد الغير محسوس، فتجاوزت بذلك فكرة اعتبارها مجرد نظام اجتماعي، مهمتها الأولى الربط بين العمليات الإنسانية والعمليات الخارجية إلى احتوائها للإشعاعات الفكرية والعاطفية، فلا يمكن أن نجد قيماً اجتماعية متجسدة بعيداً عن اللغة، لأن الفضل راجع إلى خصائص هذه الأخيرة، في إبراز التآزمات الاجتماعية وغيرها.

وإذ نحن أمام روايات للكوبي التي تعاني مشكلة الوجود، والافتقار إلى مقومات معنى الحقيقة الإنسانية يمكننا التأسيس للاغتراب اللغوي انطلاقاً من توصيف هيدغر للغة وكيفية تعالقه الشديد مع فكرة الوجود فهي الوجود، إذ لا وجود خارجها أو بدونها وهي الحقيقة الإنسانية القابلة للإدراك.

اللغة الاغترابية وأبعادها: -

لعلنا نتفق على أن الكاتب قد يسوي بين محورين اثنين من اللغة: محور السرد، وتكون لغته فصيحة سليمة، بل راقية، ومحور الحوار، وتكون لغته متدنية وعامية قريبة لهموم الناس وأحوالهم وربما تكون الآراء النقدية المغلوطة هي التي كانت تواجه الروائيين العرب المتقدمين من أمثال إحسان عبد القدوس ويوسف السباعي، ونجيب محفوظ، فكانوا يكتبون باللغة الفصحى البسيطة، بل الضعيفة في بعض الأحيان في رواياتهم.

وقد نجد أن اللغة ليست بيئة محايدة، حتى أنها لا تصبح بسهولة وبجرية ملكية للمتكلم، بل إنها مسكونة ومكتظة بالنوايا الأجنبية، والسيطرة على تلك النوايا، وإخضاعها لنوايانا ونبراتها، هي صيرورة وعرة ومعقدة¹².

11 - باختين - ميخائيل، الخطاب الروائي، ترجمة محمد برادة، ص. 45

12 - باختين - ميخائيل، الخطاب الروائي، ترجمة محمد برادة، ص. 56

ويذهب باحثين إلى أن الرواية تعني التنوع الاجتماعي للغات، وأحياناً للغات والأصوات الفردية تنوع أدبي منظم؛ وتقضي المسلمات الضرورية بأن تنقسم اللغة القومية إلى لهجات اجتماعية، وتلفظ متصنع عند جماعة ما ورتانة مهنية، ولغات للأجناس التعبيرية، وطرائق كلام بحسب الأجيال والأعمال والمدارس والسلطات، والنوادي والموضات العابرة، وإلى لغات للأيام، بل الساعات الاجتماعية والسياسية، وكل يوم له شعاره وقاموسه ونبراته¹³.

ولعل الخطاب الروائي، وحوار اللغات داخله، يكشف عن تعدد لا يفقد هذا الخطاب خصوصيته، كما يكشف عن أصوات الآخرين المنبثقة عن هذا التعدد، وقد تكون هذه الحوارية مجسدة لخطابات أجناس أخرى تحويها الرواية، كما أن لغات مهن ولهجات ولغات أيام، كل هذه العوالم المتناقضة المتباينة تختلط وتتداخل ضمن الخطاب الروائي، على أن الروائي من خلال نصه، يذهب إلى تجسيد هذه الحوارية وفق الانتقاء والاختيار، فهو لا يقدم إلا ما يعمل على تصوير الحالة المتحدث عنها، وليس المطلوب منه إمدادنا بالكل حيث يبدو العالم الروائي متناقضاً ومتضاداً، باعتبار أن الحياة لا تخص الهادئ الساكن وحده، فإن التعبير عن أجواء الصراع، لا تتم إلا بما يدل على ذلك ويحيل إليه، من بنية لغوية تنقل للمتلقي أجواء التناقض بين السكون والحركة العنيفة، وإخضاع هذا التعدد اللغوي للشرط الإبداعي في نوع من التركيب الذي يضيف إلى النص دون أن ينال منه، من الصعوبة بمكان على عكس ما قد يبدو ذلك سهلاً يسيراً للوهلة الأولى، ذلك أن مقدرة التوظيف، وتأكيد الشيء في المكان الذي يختص به، ويخصه تحتاج إلى قسط وافرم من الدربة والمران¹⁴.

وتكوّن الخطاب الروائي ونشأته في ضوء التصور "الباختيني" لا يمكن أن يتم بعيداً عن احتضان بيئات غريبة¹⁵، وهنا يتعلق الأمر باستدعاء لغات أخرى، ودمجها داخل النص النثري المبدع، ذلك أن هذا الاستدعاء لا يجعل المتلقي يقف على وحدة أسلوب المبدع، وإنما على وحدة اللغة، حيث يتم الاستماع إلى أصوات الآخرين، من خلال لغاتهم التي يتحدثونها، والتي تبدو داخل النص غريبة أو تشوه الصورة الأدبية التقليدية التي أمدنا بها النقد الأسلوبية القديم، والذي قام أساساً على رصد المعطيات البلاغية وحدها.

13 - ينظر، نفسه، ص 33

14 - ينظر، يقطين - سعيد، الخطاب الروائي - الزمن السرد التعبيري، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1989، ط 1 ص 75

15 - ينظر، إبراهيم - عبد الله، المتخيل السردى مقاربات نقدية في التناص والرؤى والدلالة، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1994، د ط، ص 58

ويرى باختين: أن اللغة بوصفها بيئة حية ولمموسة يعيش فيها وعي الفنان بالكلمة، لم تكن أبداً لغة وحيدة إنما لا تكون كذلك إلا باعتبارها نسقاً نحويّاً مكوناً من أشكال معيارية، ومحولاً عن الإدراكات الإيديولوجية الملموسة التي تملؤه، ومحولاً عن التطور المستمر للغة الحية، فالحياة الاجتماعية الراسخة والصبورية التاريخية، تخلقان داخل لغة قومية وحيدة، وبكيفية مجردة، عدداً وافرّاً من العوالم الملموسة ومن المنظورات الأدبية والإيديولوجية المغلقة على نفسها، وعناصر تجريدية من اللغة تمتلئ بمضامين مختلفة¹⁶.

وهذا ما نجد عند الكوني في رواياته، فاللغة عنده مكون أساسي في تجربته الإبداعية، وتميز هذه اللغة يظهر عندما يتعلق الأمر بالإشارة إلى أن هذه اللغة لم تكن يوماً ما لغة واحدة مستقلة بذاتها، أو داخل عالم مغلق، إنما لغة مفتوحة على مجموعة من اللغات الأخرى، التي تقف إلى جانبها، وبالتالي فهي تشاركها الحياة داخل نصه الروائي، فإن كانت الرواية تقدم الحياة، فإن هذه تقدم في مطلق العمومية والشمولية، مطعمة بلغة الشعر، فقد كانت لغة الكوني تميل كثيراً إلى الشعرية وتسمو إلى لغة الوجدان كما جسدها في جل أعماله الروائية وغيرها.

هذا وتتداخل مراحل لغوية مختلفة في روايات إبراهيم الكوني، لتكون في الأخير طابعاً للرواية لديه، وتتحول اللغة في نهاية المطاف إلى مجموعة من الرموز التعبيرية، لتؤدي محتوى الفكرة التي تبرز فيها العناصر العقلية والعاطفية والخرافية معاً، فتصبح اللغة حدثاً اجتماعياً محضاً له أبعاده الفنية المختلفة.

ومن المهام الأساسية للأسلوب لديه هو أن يحول مستويات التعبير الأخرى إلى مجموعة شحنات معزولة، بينما تكمن وظيفة الأسلوب في إدخال بعضها في تفاعل مع البعض الآخر، كما لو كان ذلك في معمل كيميائي، وبالرغم من أن الدراسات السردية المعاصرة، أهملت اللغة الروائية، واهتمت أكثر بالوظائف، إلا أنّ الاهتمام بها أخذ يتوسّع بين النقاد في العالم العربي، بيد أنّ أسلوب الرواية عموماً لدى إبراهيم الكوني، له مجموعة من الخصائص التي تميز طبيعته السردية، بعيداً عن الوظائف والأفعال والعلاقات الأخرى التي بنيت عليها رواياته.

ولعلنا نلاحظ أن الكوني لا يستثمر كثيراً التنوّع اللهجي واللغوي الصحراوي والمديني في استنطاق شخصياته، ولا يعول عليه كثيراً، لكنه يظل ملمحاً ثابتاً في لغته الروائية، من الواجب الإشارة إليه، ولا سيّما في المشاهد الحوارية، بل يظل - في الغالب - مخلصاً للفصحى التي تذيب النبرات واللهجات في مستوى لغوي واحد، كما في روايته - الورم - و - من أنت أيها الملاك - مثلاً، وهو بذلك يوحد فنيّة وجمالية الحوار

16 - ينظر، باختين - ميخائيل، الخطاب الروائي، ص 52

المتناغم مع التكوين الإثني والثقافي للشخصية، ويؤكد على المستوى المعياري للغة، الذي يقفز فوق التنوع الفردي والاجتماعي لكل شخصية من شخصياته، باختلاف مستوياتها وانتمائها .

واللغة بمكوناتها الاغترابية تشكل سمة رئيسية عند الكوني، فغاية الاستعارة الابداعية لديه، نيل العالم في وجوده الحقيقي ووجوده الديني، لهذا السبب تبدو اللغة عنده في عمومها، ولغة الاغتراب على وجه الخصوص وسيلة مقدسة وحليمة، لأنها ليست نزوة من نزوات هذه الملة، ولا مغامرة دافعها اللهو الذي يراه الكثيرون غاية الفن، ولكنه السعي المحموم المحبول بحافز ميتافيزيقي مجبول بضمماً مقدس؛ لأن هدفه اختلاس السر من العدم واستعادة الوجود الضائع في الوجود الإنساني ، فقد نالت لغة الكوني ذات الایماء الدلالي الذي وضعه المسلمون الصوفيون في مفهوم الإشارة، واستعارت دور حجر الحكمة، ليس لقدرتها على تبديل الأشياء في صورتها الظاهرية، ولكن تبديل طبيعة الأشياء كذلك، إذ بالاستعارة بدأ تحويل العالم إلى رمز، وبدأت عملية الإخفاء النبيل المتمثلة في تحويل الوجود الإنساني إلى مادة مجازية منفية عن وطنها المرئي¹⁷.

ولعل صورة اللغة الاغترابية الروائية، في أبعادها التعبيرية - كما سيأتي - تعكس العوالم الروائية وطبائع الشخصيات في المسارات السردية، كما تجسد التعدد والائتلاف اللغوي، من خلال المزج بين لغة الكتابة ولغة التراث الشعبي واللغة المحلية الطارقية، فضلاً عن حضور لغات أجنبية، مثل الفرنسية والإنجليزية، ولكنها تأتي بسيطة، فلم تشكل ملمحاً ثابتاً في اللغة الروائية عامة لدى الكاتب في رأينا.

ونجد الرواية عند الكوني تعد نموذجاً للتعدد اللغوي، الذي يجسد ظاهرة الاغتراب اللغوي، من خلال تنوع الشخصيات واختلاف مشاربها، وتباين أهدافها، على أن التعدد الكامن في الروايات يكشف عن بروز بعض الألوان اللغوية، ومنها الشكل السائد المعروف من لغة الكوني الروائية، إضافة لذلك نجد اللغة الشفاهية التي نتلقفها من فضاء الروايات، ونتوقعها في حواريات الشخصوس، وإلى جانب ما ذكر يمكننا التوقف عند لغات تنتمي لأجناس أخرى، هذا ما نحاول الانصات إليه من داخل روايات الكوني في قادم الصفحات.

الدلالات الاغترابية للألفاظ على مستوى عناوين الروايات:

تتمتع أسماء الأماكن في روايات الكوني عموماً، وعناوين رواياته بشكل خاص، بأهمية كبيرة في الخطاب الروائي لديه ، لأن الأسماء والعناوين غالباً ما تدل على مسمياتها، وتوحي بماهيتها، مما يمكن المتلقي من الولوج

17 - ينظر، دعة - حسين، صحرائي الكبرى مقدمات لمقالات الكوني، صحيفة الرأي، العدد 1046، 22 شباط 1998، عمان الاردن،

إلى عالم اللفظ الداخلي، ويقدر ما يدل الاسم والعنوان على مسماه، ويوحى بكنهه ويكتفه، ويمكن المتلقي من تلمس معالمه، يكون اسماً وعنواناً مناسباً، والروائي المبدع لا يطلق الاسماء والألفاظ جزافاً واعتباطاً، وإنما ينتقيها بدقة وصدق، لتكون مرتبطة بدلالات يريدتها، ودالة على مراده، ومنسجمة مع خطابه الروائي، ومن عمق دلالات الاغتراب لهذه العناوين والأسماء، سنبين بعضاً من الدلالات الاغترابية للأسماء والعناوين في مواضع من روايات الكوني.

فعلى مستوى عناوين الروايات موضوع الدراسة نجد نزيه الحجر - الورم - القفص - خريف الدرويش - واو الصغرى - الفزاعة - بيت في الدنيا وبيت في الحنين - من أنت أيها الملاك - يوسف بلا إخوته - قابيل أين أخوك هاييل - في مكان نسكنه في زمان يسكننا - بر الخيتعور - مراثي أوليس - البحث في المكان الضائع - نداء ما كان بعيداً - فتنة الزؤان إلخ، فدلالة الاغتراب هي قاسم مشترك بين هذه العناوين، فالنزيه دلالة سلبية تحمل ظلال النهاية خاصة إذا كان هذا النزيه للحجر الذي يحمل ذكرى الأسلاف وآثارهم، فالاعتداء المتكرر على إرث الأولين ونقوشهم على الحجر، هو بمثابة طمس وتغريب لذكراهم.

ولفظ (الخسوف) مثلاً في الرباعية الروائية التي تحمل هذا العنوان، والخسوف لفظ له دلالة اغترابية لما له من حجب للطبيعة.

والورم عندما كان معادلاً موضوعياً لداء حب السلطة وعشقها، وتعلق البعض بها، وتعلقها بهم أيضاً، فمن يتشبثون بالسلطة تتحول عندهم مع مرور الزمن إلى وباء فتاك، فالسلطة معشوقة لا تترك عشاقها إلا أمواتاً¹⁸، وفي ذلك غاية الاغتراب .

أما عنوان - بيت في الدنيا وبيت في الحنين - فيقابل الكوني به بين بيت الدنيا وبيت الأبدية ويذهب إلى أن المعول عليه هو بيت الحنين والأبدية، ويقلل من شأن بيت الدنيا لأنه زائل لأمحالة، ولعل لفظ الحنين هو الآخر له دلالة اغترابية، لأنه يحمل معنى التوق والتطلع لبيت الأبدية من جانب، ونبذ بيت الدنيا من جانب آخر.

ولعل صيغة الاستفهام التي يحملها عنوان رواية - من أنت أيها الملاك - هي الأخرى، تعتبر أولى العتبات الاغترابية في هذه الرواية، وافتتاحية تفضي بالقارئ إلى مضمونها، فقول الكوني: من أنت يحمل ظلال التغريب لمولود لم يجد مكاناً في هذه الدنيا.

18 - مقابلة مع إبراهيم الكوني على قناة dw الألمانية، برنامج شؤون ثقافية بتاريخ 18- 10 - 2011 م الرابط <http://dw.com/p/12rWc>

المعجم الاغترابي في روايات الكوني:

اللغة في الرواية من أبرز وظائفها هي الدلالة على الأشياء، دون تلون بالأحاسيس والمشاعر، وهذا هو الغالب، ولكن للغة وظيفة فنية تمتزج فيها الدلالة بالانفعال الانساني، وهذا المزج هو ما يضفي على الأدب عموماً، وعلى الرواية على وجه الخصوص، مسحة جمالية تكون مكملة الجدة والتميز بين الكتاب¹⁹ فليست اللغة أداة لتوصيل الأدب وحده، ولكنها الوعاء الحامل لكل فكر الإنسان وعلمه وثقافته²⁰، فلم تعد أداة تواصل، بقدر ما أصبحت أداة تقاطع²¹.

ولعل أهم ما يميز لغة إبراهيم الكوني في رواياته هو مواكبتها لحالة الشخصية، وتلونها بما كلما اختلفت حتى صارت لكل حالة نفسية لغتها الخاصة بها؛ ولأن من شخصيات الكوني في رواياته شخصيات مضطهدة مقهورة، وتعيش الأزمة تلو الأخرى، فإن لغتها منقطعة مختصرة مثل لغة القصة القصيرة فحين تتحدى الشخصية وتغضب، تنطلق لغة تشي بالحدود والتمرد والتوعد، وحين تشعر بالضعف وتميل إلى الاستسلام والخضوع تدل لغتها على الانحلال والانحدار والهزيمة، فما يهدد اللغة يهدد الشخصية، وما يهدد الشخصية يهدد اللغة في تفاعل إيجابي متبادل يصوغ الشخصية واللغة في وقت واحد²².

فاللغة كانت دائماً مرادفة للقوة، فإن تتكلم يعني أن تمارس إدارة السلطة، فلا أهمية ولا أمن في فضاء الكلام، وتعد المفردات الاغترابية أكثر المفردات اللغوية تكراراً في روايات الكوني فالمعجم الاغترابي لديه ثري حد التخمة، بألفاظ وتراكيب ذات دلالة صريحة على حالات الاغتراب، التي تمر بها بعض شخصياته الروائية التي هي في واقع الأمر انعكاس لشخصيته المغتربة، فقد كان الكوني يعيش الغربة والضيق كحالة وكشعور، حيث ترعرع في سياقاتها بامتلاء غريب، وهذا ما تفيض به حياته ونصوصه معاً، على نحو لا يتطلب أي عناء في البحث والتنقيب للتدليل على ذلك، إلا أن الأهم في ذلك قد تمثل في سعيه لتحويل حالة المعاناة التي كان يعيشها، من تجربة مهلكة إلى فاعلية نصية وسياسية ووجودية مقاومة لهذه الحالة ولأسبابها وتداعياتها؛ وبتقليب مسارات الكوني من وجوه عدة، سنجد بأن الأمر يتعلق بإنسان مغترب منفي إلى أقصى حد، عاش قدره

19 - ينظر، القسنطيني - نجوى، الحلم والهزيمة في روايات عبدالرحمن منيف، منشورات كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، الدار البيضاء، المغرب، 1995، د ط، ص 240.

20 - بدر - عبد المحسن طه، نجيب محفوظ: الرؤية والأداة، ص 116

21 - عيد - رجاء، دراسة في أدب توفيق الحكيم، منشأة المعارف، الاسكندرية، 1977، د ط، ص 99

22 - غالي - شكري، المنتمي، دراسة في أدب نجيب محفوظ، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت لبنان، 1991، د ط، ص 370

بأصالة وبسالة وصدق وفاعلية، اندمج في الوجود الجماعي لأمة الطوارق إلى حد التماهي، لا لكي يرويه أو يوثقه فحسب، بل كي ينهض من نفس العذاب نحو الفعل الذي لن يكون بدون وعي مختلف، لذلك فإن مساره الوجودي والأدبي والسياسي ينبثق من (وفي) مسارات المنفى والاغتراب والجماعة التي ينتمي إليها، ويتبادل معها وفيها الدلالات اللغوية والإحالات، وهذا الانبثاق يستمد قوته من الصيرورة، أكثر مما هو اجتهاد أو تأويل، وفي هذا السياق لا تغدو المسألة عند الكوني جعل تاريخ الأدب تاريخاً لمن أنتجوه، لأن المسألة هنا هي حالة التحام وانبثاق يملي توضع الفاعل في صلب نصه، ونصه في صلب تاريخه، بصورة يتبادلان فيها الإحالات على نحو فسيح ومبدع.

ومن الكلمات التي استعملها الكوني وهي ذات مدلول اغترابي كلمة - بيت -، فقد أفردتها بخصوصية في الاستعمال عند أمة الطوارق ولغتهم، واستخلص بعض المفاهيم لهذه الكلمة من خلال موسوعته - بيان في لغة اللاهوت - إذ جاء فيها ما يفيد بعض المعاني الهامة: عندما يطلق الطوارق اليوم اسم البيت ب - هن - فإنهم يعنون البيت الروحي المسكون بالألوهة، كما تقول ترجمة البنية في عبارة - بيت الألوهة - ومفهومه كسكون يحمل مدلول الاستقرار في بعده الحسي، كاسترخاء قد يكون نعيماً للجسد...²³، ويستدرك الكوني ليقول: "ولكنه لا بد أنه جحيماً للروح ما لم يتسرل بطلسم الأعجوبة الكامنة في النون كحرف مقدس أسس في كلمة سكن العربية حجر الزاوية كبنية مركبة من سين الباطن، وكاف الحضور الروحي، متوجة في النهاية بنون الألوهة في تعبير: "جوهر الحضور الإلهي" كاستعارة لن نجد لها مثيلاً حتى لو تمثلنا الفلسفات الصوفية بأسرها؛ ولهذا فلفظ "بيت" مرادف في لغة أهل الصحراء للفظ "موت"، وكذا كلمة "قبر"، بمعناها المعروف لدى العرب، تعني في لغة الطوارق "بيت" فالبيت عند الطوارق وإنسان الصحراء هو قبر²⁴.

والباء في المصرية تعني أيضاً المكان، أو السكن، وهو الرمز الذي أشارت له الرموز بالمرجع، وهو علامة على الضريح، أيضاً كسكن مطلق كبيت الأبدية، كخلود من جهة، وكعدم من ناحية ثانية؛ وتحمل الباء في اللغة الطارقية معنى ميتافيزيقياً يدل على مفهومين جدليين: الروح والموت، لأن الروح التي أسست مفهوم خلود الروح، لا بد أن تتزوج بين المبدئين، فتري في البيت الروح إذا استوت، وتري في الروح بيتاً إذا تبددت²⁵.

رأينا بعضاً من معاني كلمة "بيت"، كما وردت في المفاهيم الطقوسية المستعارة من اليقين البدئي، فكيف

23 - ينظر، الكوني - إبراهيم، بيان في لغة اللاهوت، لغز الطوارق يكشف لغزي الفراغنة وسومر، دار الملتقى للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2001، ط1، ج4، ص 152-153-163

24 - مقابلة مع الكوني على شاشة العربية، برنامج إضاءات، تقديم تركي السخيل، www.alarabiya.net/articles/2009/07/09/78272.html

25 - ينظر، الكوني - إبراهيم، بيان في لغة اللاهوت لغز الطوارق يكشف لغزي الفراغنة وسومر، ج 4 ص 163.

وظّفها الكوني في رواياته، التي وظف فيها مفهوم البيت، ومن هذه الروايات روايته التي كانت بعنوان "بيت في الدنيا وبيت في الحنين"، التي هي علامة لغوية مغرية، تقودنا إلى قراءة النص الذي يشرع فيه الكوني منذ بداية الرواية، عندما يبدؤه بإثارة مشكل وجودي لكلا "البيتين"، وذلك عن طريق الجدل والحوار، مع شخصية حميمة اقتطعها من نفسه، أو قد يكون استدرج مجيئها من الخلاء، أو لعلها طلعت عليه من عزلة المخيرة، أو هو "شبح من أشباح الجن" سماه بالمهاجر، أو قل بالدليل المرشد والمحاور الحكيم، الذي وعده بأن يبني له بيتا لم تر الصحراء له مثيلا²⁶.

يعد العنوان "بيت في الدنيا وبيت في الحنين" لهذه الرواية، من أهم العتبات التي تشكلت في نهاية مراحل الكتابة، إلا أنها أول ما يقرأ، وهذه المفارقة التي يجب علينا أن نركز عليها، ذلك أننا لو اعتبرنا هذه المقولة سليمة، فإن للعنوان مهمة مميزة في تلخيص مضمون هذه الرواية، و إعطائنا إشارات تحيلنا إلى قراءة مبدئية، أو لنقل مقارنة تفاعلية لما يقوم الكوني بالتفصيل فيه في المتن الحكائي، فالعنوان كما يشبهه (جاك دريدا Jacques Derrida)²⁷ كالثريا التي تتشكل من عديد الرؤى، التي يجب علينا الإقرار بوجودها والبحث عنها لا بما هو موجود، بل بما هو غير موجود، فالنص يتمتع لا يقول ما هو حاضر، بل يؤسس لما هو غائب في كل الأحوال²⁸، وهذا صنو ما يقوله (شعيب حليف) في كتابه هوية العلامات في العتبات وبناء التأويل: "تنبثق أهمية العنوان بشكل عام من كونه عنصراً من أهم العناصر المكونة للمؤلف الأدبي، ومكوناً داخلياً يشكل قيمة دلالية عند الدارس، حيث يمكن اعتباره ممثلاً لسلطة النص وواجهته الإعلامية..."²⁹ وننتقل من هذا القول، لندخل في خبايا ذلك العنوان الفريد فتنتقل الرحلة وتتداعى الأفكار حول هذا البيت المخير، اللافت للانتباه والمقلق فعلا، والذي فشل المرید في إقناع قرينته بضرورة التزهد فيه، فلم توافقه وافترقا بسببه -

فراق الأبد -، لأن أحدهما اختار أن يكون "بيته" موجوداً في الدنيا، يقبل عليه إقبال المحب، يزينه بالحلل

26 - الكوني - إبراهيم، بيت في الدنيا بيت في الحنين، ص 68.

27 - جاك دريدا (Jacques Derrida) فيلسوف فرنسي من مواليد الجزائر، صاحب نظرية التفكيك ولد جاك دريدا في 15 تموز 1930 في حي البيار بمدينة الجزائر، في منزل عطلات. البنيوي ودعوا إلى تجاوز نموذج النقد كما تجلى عند الشكلانيين الروس من خلال ترجمات تودوروف Todorov، وكان شعار جماعة تيل كيل هي الكتابة *écriture* في مقابل الأدب وعلى الأولى أن تقوم بتفكيك الثانية، فالكتابة في وظيفتها إلا بداعية ليست تمثيلاً أما اللغة فإنها بدورها تفلت من كفاءة اللغوي حينما تدخل في فضاء النص توفي سنة 2004. للمزيد ينظر دريدا جاك، "الكتابة والاختلاف" ترجمة كاظم جهاد، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، الطبعة الثانية 2005، ص:26.

28 - ينظر - دريدا - جاك، الكتابة والاختلاف، ترجمة كاظم جهاد، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء المغرب، 1988، ط1، ص:127.

29 - ينظر، حليفي - شعيب، هوية العلامات في العتبات وبناء التأويل - دراسات في الرواية العربية، دار الثقافة، تونس، 2005 د ط،

والكساء والرياش، ويعمره بالخدم والحشم ويعيش فيه عيشة بذخ وترف، وإقبال كبير على الحياة، كان ذلك من خلال مشهد صور لنا فيه المؤلف القرينة وهي ترفل في ثوب فاخر، وزينة فاتنة تشى بمدى تعلقها بالدنيا وإقبالها عليها، إقبال من يسرت حياته وكثر ماله، وهذا سلوك طبيعي للإنسان المقبل على الدنيا وعلى شهواتها، إلا أن المعادلة صعبة والاختيار الذي أقبل عليه المريد كان قاسياً لسبيين:

- سبب فكري: وجودي، ميتافيزيقي، يتمحور حول رحلة العبور، رحلة الأبدية والبحث عن اليقين وعن الحرية.

- سبب مادي: يتمثل في المرض الذي يعاني منه المريد، فعندما يعتل الجسد فإنه يمكن صاحبه من أن يرحل عبر الامه وعبر ما يصيبه من نوبات وغيبوبة إلى أن يتشوف العالم الآخر ويبحث فيه عن الخلاص.

أصيب مريد هذا الزمان في هذه الرواية، بهوس الحنين الميتافيزيقي، برغبة عارمة جاحجة قاتلة، يسعى من ورائها إلى بناء بيت ليس ككل البيوت، بيت له صلة بحنين الراوي، ويترجم عن فلسفة خاصة جداً، أهل الدنيا ييغون ابتناء بيوت الدنيا، وأهل الحنين يتشوقون لبناء بيت الأبدية³⁰.

إنها رحلة المجهول، و اقتحام أوطان لا وجود لها في حدود الأوطان، رحلة العبور الأبدي أليس في حرف "الباء"، أول حروف هذه الكلمة ما يعنى في المصرية المكان أو السكن... ألم يهاجر الخلق في القديم إلى أوطان الأبعد، إرواءً لمغامرة، أو توقاً للمجهول، أو إشباعاً لنهم ميتافيزيقي اسمه الحنين³¹.

كذلك اعتادت الصحراء أن تحتال على الظالمين إلى الحنين، لتقودهم إلى التيه، إلى الواحة المفقودة، إلى "واو"، التي لا تظهر إلا لتحتفي، إلى البيت الوحيد الذي يستطيع هؤلاء الغرباء أن يجدوا فيه حنينهم الضائع: الأبدية!³²؛ لذلك زعزع المريد وسواس "العبور"، ومجاهمة "الزوال"، بتخليد الرسالة - رسالة الإنسان، وباصطفاء اللحن - الغناء - العزف - الشجن -، هذا اللحن المنسوج من نار الحنين، ومن أنات الشاعر الحزين، ومن صدر المريد المشتعل بالوجع، والطامع في بلوغ الرحاب، إنه الوجد، والتماهي في اللحن الخالد لهذا الحنين، هذا الجنس من الوجدان الشجي جعل الحكيم يتجاوب مع المريد، ويعدده ببناء بيت لم تشهد الصحراء له مثيلاً، وإنها اللجنة كما وردت في "رسائل إخوان الصفاء" أوهى الفردوس المفقود، الذى مكانه السماء، حيث الملائكة وبقية الكائنات اللامرئية؛ إنه الشعور الميتافيزيقي يجتاح المريد، فيقوده إلى رحلة العبور،

30 - ينظر، الكوني - إبراهيم، بيت في الدنيا وبيت في الحنين، ص 66.

31 - ينظر الكوني - إبراهيم، بيان في لغة اللاهوت، لغز الطوارق يكشف لغز الفراعنة وسومر ج 4، ص 199.

32 - ينظر الكوني - إبراهيم، بيت في الدنيا وبيت في الحنين، ص 61.

وإلى مجابهة الزمن والصراع ضد المتغيرات متغيرات الزمن الرديء، زمن صراع الأقوياء، الصراع

بين الثروة المادية والثروة الروحية³³.

وتبدو في الأثناء رحلة المرید مثخنة بالجراح: جرح الخيانة، وجرح الجسد، وجرح الجشع ونكران الجميل، وجرح فقدان الثقة في الآخر، ومع ذلك يستبسل المرید في رحلة العبور إلى بيت "الحنين" إلا أن الرحلة كانت قاسية، لأن المرید كان يعاني ضعفا في الجسد، نزيهاً في الرئتين، خصومة حادة مع القرينة، من أجل استرجاع "الحقل" الذي رأى فيه أملاً وطيداً، ومكاناً ملائماً جداً لتشييد "بيت الحنين" لذلك عمل العابر في هذه الرحلة على تخليص جسده من بيت عماده الأوتاد، شبهه الله تعالى ببيت العنكبوت لضعفه وهشاشته قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾³⁴.

أما كلمة "الدنيا" فقد زهد فيها الصادقون في العبادة من أجل الفوز بالآخرة: لَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ

اللَّهِ جَنَاحَ بُعُوضَةٍ مَا سَفَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ³⁵.

هذا البيت في الدنيا من سماته البهرج والرياش، لذلك فضل عليه المرید بيتاً عماده الروح، فجاهد في هذه الرواية للوصول إليه مهما كلفه ذلك من تضحيات، وتمادى في قلبه الحنين، فلم يجد مفرّاً من أن يختار بين نيل البيت، وبين التخلي عن الأم التي تعني في متن الرواية الأرض، وعرف أنه فقد الأم إلى الأبد وفقد بفقدان الأم آخر رباط شده إلى الصحراء أيضاً³⁶.

إن الرحلة بين الـ "هنا" والـ "هناك"، بين "بيت" يوجد في الدنيا، و"بيت" يوجد في الحنين في المجهول، في اللا مرئي، لتبدو مفعمة بالثنائيات، والصور البلاغية، والتعابير الاستعارية، والأبعاد الفلسفية، والإرهاصات الصوفية، التي ملأت نفس المرید، فدفعت به إلى التنقل وتكبد مشاق هذه الرحلة القاسية، لذلك هام في الصحراء، التي لا تعدو أن تكون رمزاً للدنيا، عله يخلص روحه المغترية في الجسد العليل فيحقق لنفسه بيت الحنين.

33 - ينظر، الضويري - مراد، مجلة الحياة الثقافية (التونسية)، "أساطير الكائنات اللامرئية في رسائل إخوان الصفا" ع 138، السنة 27، أكتوبر، 2002. ص 34

34 - سورة العنكبوت، الآية 41

35 - الطبراني - سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني (المتوفى: 360هـ)، المعجم الكبير، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، 1994، ط 2، ج 6، ص 157

36 - ينظر، الكوني - إبراهيم، بيت في الدنيا وبيت في الحنين، ص 33.

وهام المرید في الصحراء، في رحلة نعتها باسم "رحلة العویل"، كما أطلقها عليها سلاله الشعراء³⁷، عندها اتخذ الناي صوتاً، واستعصى في عينيه الدمع، فانقلب لعينيه دمعاً، ولم يجد متنفساً لوسواس اسمه الحنين، فتحول الحنين بين يديه تريباقاً للحنين، ولكن الناي لم يبلغ به البرزخ³⁸ الناي لم يبلغ به الوطن، الناي أيضاً لم يبلغ به البيت³⁹.

هذه بعض من إشارات، يريد صاحب البيت أن يهمس بها إلى القارئ الفطن، ليضيف فيؤكد أنه صار مسكوناً بالبيت، وأن القبائل أطلقت عليه صاحب الناي، الذي يتغنى بالبيت، في حين سمته قبائل أخرى المسكين المسكون بالبيت⁴⁰، ألا يجوز أن نقول عن المرید ما قاله الحلاج عن نفسه ما في نفسى إلا بيت، قياساً على ما في جيتي إلا الله؟. فأنا مسكون بمعنى الهوس⁴¹، أي مسكون بأغنية الحنين الأبدي.

"بيت في الدنيا وبيت في الحنين"، تسير في نسق فلسفي، يتطور بصفة خطية، خرجت في تسلسل مقاطعها الكبرى عن التقنيات الفنية، التي عودنا الكوني باتباعها، فالبداية تعني الموجود الحسي والنهاية تقودنا إلى الوجود المجرد، وما بينهما يتداخل فيه الخطاب السردي بالخطاب اللغوي حيناً وبالخطاب الفلسفي أو الصوفي أو الديني أحياناً، وغلب على لغة النص اللغة الاستعارية التي تصور الجدلية القائمة بين بيت موجود، ممجوج وبيت منشود، بين أنا تنبذ الجسد وإغراءاته وذات تطمح إلى المجهول إلى اللا مرئي إلى الحقيقة.

37 - ينظر، نفسه، ص 22.

38 - يعرف الكوني كلمة "برزخ" بالحد الفيصل.

39 - ينظر، الكوني - إبراهيم، بيت في الدنيا وبيت في الحنين، ص 23.

40 - ينظر، المصدر السابق، ص 24.

41 - كثيراً ما تتردد هذه المعاني بغزارة في كتابه "بيان في لغة اللاهوت" عندما يتحدث عن العقل البدئي فيقول: هناك كان لا بد أن توسوس الروح ولا بد أن يستيقظ الحنين، ولا بد أن يشتد الظمأ إلى الفردوس المفقود، الحنين إلى الوطن الأول هو الذي يزلزل الأبدان ويرج الكيان، يدفع الإنسان للانطلاق إلى تلك الأرض التي حرمة منها النسيان، ولكنه يمضى نحوها مستتبها بتعويدة اسمها الحدس، مستعينا على أهوال رحلته بمحس مخبوء في نبوة الوسوسة، مغالبا المسافة بأغنية الحنين الأبدي... ينظر، الكوني - إبراهيم بيان في لغة اللاهوت: المقدمة في ناموس العقل البدئي، ج 4، ص 201 - 202.

الخاتمة

في نهاية هذا البحث، فقد حاولت فيه - وفق ما ارتضيت من أساليب بحثية - أن أخلص إلى نتائج تحكمها الحيادية والتمعن، كما حاولت الاعتماد على الوصفية في تسجيل نتائجه، وحاولت - قدر المستطاع - في القضايا الجزئية، أن تكون نتائجه ملاحظات، أو إشارات، أو تعليقات مضبوطة، وأن تكون للقضايا الكلية مقاربات تستثمر النتائج الجزئية يطمئن القارئ إلى أحكامها.

وقد عرض هذا البحث اللغة الاغترابية وتمظهراتها في أعمال إبراهيم الكوني الروائية، وأظهر عمق اللغة بأبعادها الفلسفية والفكرية والاجتماعية بالشخصيات في روايات ابراهيم الكوني، فقد عرفنا بالبنى اللغوية ودورها في إبراز تجربة الاغتراب في روايات الكوني، وفي هذه الخاتمة قد خلصنا إلى: -

- أن الكوني لا يستثمر كثيراً التنوع اللهجي واللغوي الصحراوي، والمديني، في استنطاق شخصياته، ولا يعول عليه كثيراً، لكنه يظل ملمحاً ثابتاً في لغته الروائية، من الواجب الإشارة إليه، ولا سيما في المشاهد الحوارية، بل يظل - في الغالب - مخلصاً للفصحى.
- أن الرواية عند الكوني تعد نموذجاً للتعدد اللغوي، الذي يجسد ظاهرة الاغتراب اللغوي، من خلال تنوع الشخصيات واختلاف مشاربها، وتباين أهدافها، على أن التعدد الكامن في الروايات يكشف عن بروز بعض الألوان اللغوية.
- إن أهم ما يميز لغة إبراهيم الكوني هو مواكبتها لحالة الشخصية وتلونها بما كلما اختلفت حتى صارت لكل حالة نفسية لغتها الخاصة بها.

ثبت للمصادر والمراجع: -

- القرآن الكريم برواية قالون عن نافع المدني
- إبراهيم - عبد الله، المتخيل السردى مقاربات نقدية في التناسخ والرؤى والدلالة، المركز الثقافى العربى، بيروت، 1994، د ط.
- باختين - ميخائيل، الخطاب الروائى، ترجمة محمد برادة، دار الفكر للدراسات والنشر، القاهرة 1987، ط 1.
- بدر- عبد المحسن طه، نجيب محفوظ، الرؤية والأداة، دائرة الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة مصر 1987م د ط.
- حليفي - شعيب، هوية العلامات في العتبات وبناء التأويل - دراسات في الرواية العربية، دار الثقافة تونس، 2005 د ط.
- الخطيب - محمد كامل، تكوين الرواية العربية - اللغة ورؤية العالم -، منشورات وزارة الثقافة دمشق سوريا، 1990 م ط 1.
- دريدا - جاك، الكتابة والاختلاف، ترجمة كاظم جهاد، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء المغرب 1988، ط 1، ص: 127.
- دعة - حسين، صحرائى الكبرى مقدمات لمقالات الكونى، صحيفة الرأى، العدد 1046، 22 شباط 1998، عمان الاردن.
- ساير- ادوارد، مدخل للتعريف باللغة، ترجمة سعيد الغانمى، المركز الثقافى العربى، بيروت 1993، د ط.
- الضويرى - مراد، مجلة الحياة الثقافية (التونسية)، "أساطير الكائنات اللامرئية في رسائل إخوان الصفا" ع 138، السنة 27، أكتوبر، 2002.
- الطبرانى - سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبرانى (المتوفى: 360هـ)، المعجم الكبير، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفى، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، 1994، ط 2.
- عبد الرحيم - حمدان: اللغة في رواية تجليات الروح، مجلة الجامعة الإسلامية، مجلد 16، عدد 2 يونيو 2008.
- عيد - رجاء، دراسة في أدب توفيق الحكيم، منشأة المعارف، الاسكندرية، 1977، د ط.

- غالي - شكري، المنتمي، دراسة في أدب نجيب محفوظ، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت لبنان، 1991، د ط.
- قاسم - سيزا، بناء الرواية، دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، 1985، د ط.
- القسنطيني - نجوى، الحلم والهزيمة في روايات عبدالرحمن منيف، منشورات كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، الدار البيضاء، المغرب، 1995، د ط.
- الكوني - إبراهيم، بيان في لغة اللاهوت، لغز الطوارق يكشف لغز الفراعنة وسومر، دار الملتقى للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2001، ط 1.
- الكوني - إبراهيم، بيت في الدنيا بيت في الحنين، دار الملتقى للطباعة والنشر بيروت لبنان 2000 ط 1.
- مرتاض-عبد الملك، في نظرية الرواية، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت 1998، د ط.
- مقابلة مع إبراهيم الكوني على قناة dw الألمانية، برنامج شؤون ثقافية بتاريخ 18-10-2011 م الرابط <http://dw.com/p/12rWc>
- مقابلة مع الكوني على شاشة العربية، برنامج إضاءات، تقديم تركي الدخيل، والرابط هو www.alarabiya.net/articles/2009/07/09/78272.html
- منور-أحمد، فن الكتابة ووظيفة التناص، مطابع الملتقى المغاربي الدار البيضاء المغرب، 2001، د ط.
- يقطين - سعيد، الخطاب الروائي - الزمن السرد التبعية، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1989، ط 1.



Alien language

And its manifestations in Ibrahim Al-Koni's fictional works

Fawzi Abu Bakr Al-Ayyan*

Abstract

The characteristic of the novel, according to Ibrahim Al-Koni, is a linguistic architecture that combines a multitude of relationships between its words to reflect aspects of the writer's intention, and implicit others, which remain in the corners of the literary work, reach them from its intention and persist in searching for it.

Perhaps from these aspects, what is known as the alien language, which expresses the cosmic experience with alienation, which is the origin of the production of reality in general, and the alien reality in particular, for language carries its real and social dimension within it, and it is a sacred and majestic means, because the purpose of expression is through it. It is not a luxury, as some see in the purpose of art in general, as much as it is a frantic quest to restore lost human existence, for language is semantic gestures and a world full of metaphors, signs and symbols, which contributed to changing the image of the world into a symbol and began to highlight the image of outward things, in the noble concealment process of transforming human existence into metaphorical material banished from its visible homeland

From here, we find that Ibrahim Al-Koni's novels are a model of multilingualism, which embodies the alienated language through the diversity of characters and the variation of its objectives.

fawzayan@gmail.com *